[٤٣] ختم جل وعلا السورة بذكر تكذيب الكفار الذين ينكرون رسالتك ونبوتك يانبي الله، فكذبهم الله وشهد بصدقه، وشهادة الله أنه أيده بالبينات والمعجزات والقرآن الذي تحداهم بالإتيان بمثله، وكذلك شهد بصدقه علماء أهل الكتاب الذين عرفوه كما يعرفون أبناءهم فآمنوا وشهدوا له بالنبوة والرسالة فصلىٰ الله عليه وسلم؛ فهو الصادق الأمين حتىٰ قبل النبوة.

سورة إبراهيم

سورة إبراهيم مكيّة وآياتها ثنتان وخمسون آية.

[١] سبق الكلام عن الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

ثم أخبر جل وعلا أنه أنزل هذا القرآن علىٰ محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، وجبريل يوحيه إليه ليخرج المكلفين من العباد من ظلمات الجهل والكفر إلىٰ نور الهدىٰ والصلاح. وَجَمَعَ الظلمات لتعددها وتنوعها، وأفرد النور وهو الصراط المستقيم والإيمان وإخلاص العبادة لله وحده. وكل ذلك لا يتم إلا بعون الله وغوثه وتوفيقه فهو الهادي إلىٰ سواء السبيل، قال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[البلد:١٠].

وقوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾: تشعر بلطف الله ورحمته وتربيته لعباده وإنارة السبيل لهم، وكما أنه يخرجهم من الظلمات إلىٰ النور؛ فإنه أيضًا يخرجهم إلىٰ طريق الله العزيز الذي يَغْلِبُ ولا يُغْلَبُ، الحميد المحمود بكل لسان.

[٢] يخبر سبحانه أن له مُلْكَ السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما؛ مُلكًا وتدبيرًا وتصريفًا، وله الأمر والحكم جل وعلا، وويل للذين يجحدونه ولا يؤمنون برسله من عذاب غاية في الشدّة والقسوة والغلظة.

[٣] وضح جل وعلا أن الهلاك والعذاب علىٰ الكافرين الذين يستحبون الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، ويمنعون الناس عن الإيمان والصلاح بالتهديد والوعيد والإيذاء، ويريدون أن تكون الطرق معوجة حسب أهوائهم، وهؤلاء الموصوفون بهذا الصفات في ضلال وبُعدٍ كبير عن الحق.

[٤] واعلم يارسول الله أن الله ما بعث من رسول لأمة من قبلك إلّا منهم وبلغتهم؛ ليوضح لهم التوحيد وتفاصيل العبادة لله، حتىٰ لا يكون لأحد منهم حجة، ثم بعد ذلك يضل الله من يختار الضلال، أي: يتركه وما اختار، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف:٥]. وكذلك من يرغب الهدىٰ والصلاح يهديه هداية التوفيق والإعانة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[محمد:١٧]، والله هو العزيز في ملكه لا يغلبه غالب، الحكيم في كل أفعاله وتصرفاته.

[٥] يخبر جلا وعلا أنه أرسل موسىٰ عليه السلام إلىٰ بني إسرائيل، وأيده ببعض الآيات البينات والمعجزات الباهرات، الدالة علىٰ صدقه، وأمره أن يدعو قومه إلىٰ الإيمان لإخراجهم من ظلمات الكفر والضلال إلىٰ نور الهدىٰ والإيمان، وهكذا كل الرسل مهمتهم إخراج أقوامهم من الظلمات إلىٰ النور، كما أمره أن يبالغ في نصحهم وتذكيرهم بما حصل للأقوام السابقة مثل قوم نوح وعاد ومدين وغيرهم ممن حاق بهم العذاب وحلّت عليهم النكبات لمّا عاندوا وكذّبوا الرسل، واعلموا إن ما حلّ بالأمم الماضية آيات لكل صبّار كثير الصبر وكثير الشكر لنعم الله وهدايته.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ
وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى
ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ
لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى
لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى
ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ
مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا
بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾
* قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا
عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

[٦] واذكر يا نبي الله قصة موسىٰ يوم أن قال قومه علىٰ سبيل العظة والتذكير: اذكروا نعمة الله عليكم بلسانكم وقلبكم، واشكروه علىٰ ذلك أعظم الشكر؛ إذ نجَّاكم وخلَّصكم من فرعون وقومه لما كانوا يذيقونكم أشدّ العذاب وأقساه، وذلك أنهم كانوا يذبحون أبناءكم الصغار فور ولادتهم حتىٰ لا يخرج منهم من يُسقط مُلك فرعون، وكانوا يعذبونكم باستبقاء نسائكم للخدمة والامتهان والإذلال، وفيما حصل لكم من أفعال هؤلاء الظالمين امتحان واختبار عظيم لكم.

[٧] واذكروا يا قوم أن الله أعلمكم إعلامًا صريحًا، ووعدكم وأكَّد لكم أنكم إن شكرتم نعمته فإنه سيزيدكم منها، أما إن كفرتم بنعمة الله وجحدتموها ولم تؤدوا شكرها فاعلموا أن زوالها قريب، واعلموا أن عذاب الله شديد، وأنه سيصيبكم لا محالة إنْ كفرتم.

[٨] وقال موسىٰ لقومه: اعلموا أن الله غني عن العالمين، لا تنفعه طاعة الطائع، ولا تضره معصية العاصي؛ فإن كفرتم أنتم وجميع أهل الأرض؛ فإن ذلك لا يضر الله شيئًا، لأن الله سبحانه وتعالىٰ كامل الغني، لا يحتاج لإيمانكم، ولا لشكركم، وهو سبحانه الحميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

[٩] ثم قال جل في علاه: ألم يأتكم يا أمة رسول الله خبر من كان قبلكم من الأمم، قوم نوح وقوم هود وقوم صالح، ومَنْ جاء مِنْ بعدهم من الأمم الذين لا يعلم عددهم وكثرتهم إلّا الله وحده، جاءتهم رسلهم بالآيات والأدلة الواضحات؛ فلم يؤمنوا بما جاءوا به، ولذا رَدّوا أيديهم في أفواههم وعضّوا أناملهم من شدّة الغيظ والحَنَق تألمًا واستكبارًا وعنادًا عن قبول الحق، وقالوا لرسلهم: إنا نكذّبكم ولا نصدق بما جئتم به، وإننا لفي شكّ كبير ممّا دعوتمونا إليه من الإيمان والتوحيد.

[١٠] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن الرسل سألت أقوامهم علىٰ سبيل الإنكار: أفي الله وربوبيته وألوهيته ووحدانيته شكّ؟ وهو سبحانه خالق السماوات والأرض وموجدهما من العدم علىٰ غير مثال سابق!، وهو سبحانه وتعالىٰ يدعوكم لتوحيده والإيمان به وطاعته، فإنّ جزاء ذلك: أن يغفر لكم ما سبق من ذنوبكم وشرككم، وأن يؤخر آجالكم، فلا يستأصلكم بعذاب في الدنيا، فكان جوابهم أن قالوا معاندين: ما أنتم إلا بشر مثلنا، لا مزية ولا فضل لكم علينا، وأنتم تريدون أن تُبعدونا وتَحْرفونا عمّا وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام والأوثان، فأتونا بحجة ظاهرة، وآية بينة، وعلامة واضحة.

[١١] فأجابتهم رسلهم قائلين: نعم ما نحن إلا بشر مثلكم، ولكن هذا لا يمنع أن يتفضل الله علىٰ من يشاء من عباده فيخصه برسالته ونبوَّته، واعلموا أنه لا يحق لنا وليس بإمكاننا أن نأتيكم بآيات وبراهين إلا بإذن الله وأمره ووحيه، فعليه اعتمدنا، وفوضنا أمرنا إليه، وعليه وحده سبحانه توكلنا وعليه يتوكل المؤمنون في جلب منافعهم ودفع مضارِّهم لا إله غيره ولا رب لنا سواه.

[١٢] ثم قالت الرسل: وأي شيء يمنعنا من التوكل علىٰ الله والاعتماد عليه، وما عُذْرنا في ترك تفويض الأمر إليه؟!!، وهو سبحانه قد دلَّنا وأرشدنا ووفقنا لسلوك طريق التوحيد الموصلة إليه، وإلىٰ رحمته وجنته، ونحن ياقوم مستمرون علىٰ دعوتكم إلىٰ التوحيد والإيمان، وقد هيأنا أنفسنا ووطدناها علىٰ الصبر علىٰ ما يصيبنا منكم من أذىٰ حسِّي ومعنوي؛ احتسابًا للأجر، ورغبة في هدايتكم ونجاتكم، وعلىٰ الله وحده يعتمد المعتمدون، ويفوِّض إليه المفوِّضون.

[١٣] ذكر جل وعلا مجادلة الرسل للأمم التي بعثهم الله لإنقاذها من الضلال؛ فبدلًا من الترحيب بهم والانصياع للحق كل أمة قالت: لنطردنَّكم أيها الرسل من أوطاننا، أو لتعودنَّ في ديننا وملتنا، فأوحىٰ جل وعلا لرسله أنه سيهلك الظالمين الذين هددوكم بإخراجكم من دياركم أو العودة إلىٰ دينهم وملتهم.

[١٤] ثم أخبر سبحانه أنه سوف يُمَكِّنُ لرسله وأتباعهم في الأرض بعد إهلاك الكافرين، ولكن قبل ذلك يجب علىٰ المؤمنين أن يخشوا مقامهم بين يدي الله يوم القيامة، ويخشوا وعيده وعذابه حتىٰ يتحقق لهم النصر والتمكين.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾: فيه رد علىٰ مذهب رابعة العدوية والمعجبين بكلامها الذين قالوا: لا نعبد الله إلا بالحب ولا نخاف من النار، وهذا خطأ؛ لأن العبادة بالحب وحده زندقة، والصحيح: أنه يجب ضم الحب إلىٰ الخوف والرجاء.

[١٥] واستفتح الكفار بطلبهم تعجيل العقوبة لهم إن كان هؤلاء الرسل علىٰ حق، فلجأت الرسل إلىٰ ربها، واستغاثوا به، وطلبوا نصره وتأييده؛ فأجابهم وأعطاهم ما وعدهم من النصر والتمكين، وأنزل علىٰ أهل الكفر والعناد الخزي والعذاب الأليم، وحينها ضلَّ كل من تكبر علىٰ الحق، وهلك من استكبر علىٰ الخلق، وخسر من عاند الرسل ولم يوحّد الله الحق.

[١٦] وهذا الجبار العنيد ينتظره في الآخرة عذاب شديد، وتنتظره جهنم فيدخلها ويقاسي حرها وجوعها وعطشها، وإذا طلب الماء، فإنه يشرب من صديد أهل النار وقيحهم وعرقهم - عياذًا بالله من ذلك -.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ
يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم
بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ
عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ
﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا
أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا
وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ
مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ
الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ
عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ
كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

[١٧] وهذا الجبار العنيد من شدة عطشه يحاول أن يبتلع هذا الماء الخبيث فلا يستطيع لحرارته وقذارته ومرارته، وإذا دخل شيء منه إلىٰ جوفه فإنه يقطع أمعاءه، وهو مع ذلك يعذب بأشد أنواع العذاب حتىٰ يشرف علىٰ الموت ويتمناه كلما اشتدَّ به العذاب، لكنه لا يموت فيستريح؛ بل ينتظره عذاب شديد مؤلم موجع، نسأل الله السلامة والعافية.

[١٨] ذكر جل وعلا أن جميع أعمال الكفار - حتىٰ أعمال الخير والمساعدات الإنسانية التي يقدمونها للمصابين بالزلازل والنكبات - حابطة لا ثواب عليها عند الله؛ فهي كالرماد الذي هبت عليه ريح عاصفة شديدة فبددته وبعثرته، علمًا أن أعمال الخير التي يقدمونها يأخذون جزاءها في الدنيا؛ فتعطىٰ لهم الجوائز وتنصب لهم التماثيل، أما في الآخرة فتكون هباءً منثورًا، فلا ينتفعون منها ثوابًا ولا تخفف عنهم عذابًا بسبب كفرهم وجحودهم لدين الله، واعلموا أن ذلك الحبوط لأعمالهم وعدم الانتفاع بشيء منها هو الضلال البعيد عن الطريق المستقيم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ
﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ
مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ
أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا
قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ
أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ
مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ
بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ
فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾

[١٩] ثم يقول المولىٰ عز وجل: ألم تعلم أيها المخاطب أن الله وحده هو الذي أوجد السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما علىٰ هذا الوجه البديع؟! وقد خلقهما بقدرته واستحقاقه لعمل ما يشاء، وللدلالة علىٰ وحدانيته وقدرته وحده دون من سواه، وهو سبحانه إن أراد أن يذهبكم ويفنيكم ويأتِ بخلق جديد يوحدونه ولا يشركون به شيئًا؛ فهو قادر علىٰ ذلك.

[٢٠] واعلموا أن ذلك الذي ذكرناه من قدرتنا علىٰ خلق السماوات والأرض وقدرتنا علىٰ إفنائكم والإتيان بخلق جديد؛ غير ممتنع عليه، وغير صعب؛ بل سهل يسير؛ لأنه سبحانه لو أراد شيئًا قال له: (كن) فيكون.

[٢١] يعرض جل وعلا مشهدًا رهيبًا من مشاهد يوم القيامة، ألا وهو الحشر، فحين يُنفَخ في الصور يخرج جميع الناس من قبورهم سراعًا فيقفون جميعًا في صعيد واحد علىٰ أرض المحشر، كلهم ينتظر الفصل والقضاء، وكلهم يبحث عن الخلاص والنجاء، فيقول الأتباع لرؤسائهم في الضلال في الدنيا: نحن سمعنا كلامكم وسِرْنا خلفكم، فأوردتمونا المهالك؛ فهل أنتم دافعون اليوم عنا من عذاب الله ولو شيئًا يسيرًا؟! فيجيبونهم: لو كنا مهتدين للطريق المستقيم لأرشدناكم إليه، ولكنا ضللنا فأضللناكم معنا، ونحن الآن مستوون معكم في الجزع والصبر علىٰ هذا العذاب، فإنه ليس لنا مهرب ولا نجاة مما نحن فيه من العذاب الشديد؛ فالله هداهم الهداية العامة، قال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[البلد:١٠]، أي: طريق الخير وطريق الشر، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[الإنسان:٣]، وعلىٰ هذا فيكون قصده: لو وُفِّقْنَا للهدىٰ لهديناكم.

[٢٢] ذكر جل وعلا خطبة الشيطان في أتباعه في وسط النار، بعد أن فرغ الله من حساب الخلق، وصار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، قال أستاذنا محمد الأمين الشنقيطي: (ينصب له -أي: الشيطان- كرسي من النار في النار، وحوله الضلال الذين اتبعوه في الدنيا؛ فيخطب بهم)، قائلًا لهم: يا أتباعي: إن الله وعدكم في الدنيا وعدًا صادقًا من أنه سوف يبعثكم ويحاسبكم علىٰ أعمالكم؛ فمن عمل خيرًا فقد فاز ونجا، ومن عمل شرًّا فقد خاب وخسر، أما أنا فقد وعدتكم وعدًا كاذبًا وباطلًا بأنه لا بعث ولا حساب، وزينت لكم الشهوات والشبهات؛ فصدقتموني واتبعتموني، واليوم كما ترون فقد تم وعد الله الصادق، أما أنا فقد أخلفتكم وعدي الكاذب، وما كان لي عليكم من قوة أجبركم بها حتىٰ تتبعوني، ولا كان معي حجة أو برهان ولا دليل واضح علىٰ دعوتي الباطلة، ولكن دعوتكم إلىٰ الكفر والضلال والظلم والمعاصي بأنواعها فاتبعتموني تلبية لرغباتكم وشهواتكم؛ فلا تلوموني ولكن لوموا أنفسكم؛ فاليوم كما تشاهدون أمامكم لا يمكن أن أغيثكم من عذاب الله ولا أنتم تستطيعون أن تغيثوني، إني تبرأت من اتخاذكم إياي شريكًا مع الله في عبادته في الدنيا، فانظروا كيف تبرأ من أتباعه وأخبرهم أنه ما كان له قدرة ولا سلطان علىٰ إضلالهم، وأنهم إنما استجابوا لرغباتهم وشهواتهم بتأشيرة منه، واعلموا أيها الناس أن الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بصرف عباداتهم لغير الله، لهم عذا ب مؤلم موجع شديد في نار جهنم والعياذ بالله.

[٢٣] ذكر جل وعلا عاقبة الموحدين الصادقين الذين آمنوا بالله وصدَّقوا رسوله، وعملوا الأعمال الصالحة؛ فأخبر أنهم يدخلون الجنان ذات الأشجار الخضراء الكثيفة، تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل، وهم في هذه الجنة خالدون ماكثون لا يفنون أبدًا، بإذن ربهم وحوله وقوته وتوفيقه، وبقاؤهم في الجنة بإبقاء الله لهم، وفرق بين الباقي بإبقاء الله له وبين الباقي ببقاء ذاته كصفاته فهي لا علاقة لها بالمشيئة، أي: لا تدخل تحت المشيئة كسائر الخلوقات الباقية بإبقائه سبحانه وتعالىٰ لها، ولهم في هذه الجنة التحية الخالدة، فيحيي بعضهم بعضًا، وتحييهم الملائكة أيضًا بالسلام والكلام الطيب، نسأل الله الكريم من فضله.

[٢٤] ضرب الله مثلًا بالكلمة الطيبة والشجرة الطيبة، وبيّن أن الكلمة الطيبة وهي: شهادة أن لا إله إلا الله، كالشجرة الطيبة النافعة وهي: النخلة، فإن الشجرة الطيبة أصلها راسخ في باطن الأرض مما زادها قوة وثباتًا، وأعلاها ممتد في السماء علوًّا وارتفاعًا، مما زاد في جمالها ورونقها، وهكذا كلمة التوحيد ثابتة في قلوب المؤمنين، لا تتزعزع ولا تؤثر فيها الشبهات أو الشهوات.

[٢٥] وهذه الشجرة الطيبة وهي النخلة تعطي ثمارها كل وقت بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يعتبرون ويتعظون.

[٢٦] ثم ضرب الله مثلًا بين الكلمة القبيحة والشجرة القبيحة، وبيّن أن الكلمة القبيحة وهي: كلمة الكفر، كالشجرة القبيحة وهي: الحنظلة، فطعمها مرٌّ ولا ثبات لها، وتذروها الرياح؛ لأن عروقها وجذورها منتشرة علىٰ سطح الأرض وهكذا الكافر لا مبدأ له ولا خير فيه، ولا يصعد له عمل صالح، ولا يتقبل الله منه شيئًا.

[٢٧] يخبر جل وعلا أنه يثبت عباده المؤمنين في جميع حالاتهم، وتقلبات أمورهم، فيثبتهم الله علىٰ الإيمان، ويوفقهم في الدنيا للقول الحق، وهو: شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والعمل بمقتضاها؛ فيقيهم الشبهات والشهوات، ويثبتهم الله بهذه الشهادة أيضًا في آخر حياتهم عند خروجهم من الدنيا، فيكون آخر كلامهم من الدنيا: لا إله إلا الله، ويثبتهم الله أيضًا في قبورهم عندما يأتي منكر ونكير، ثم يثبتهم الله بها في الآخرة، فتكون لهم النجاة والسعادة الأبدية، أما الظالمون فإن الله يبقيهم علىٰ ضلالهم وغوايتهم فلا يسلكون طريق الصواب، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم كانوا يظلمون، ويفعل الله ما يشاء؛ فهو سبحانه لا يُسأل عما يفعل، يهدي من يشاء برحمته وفضله، ويضل من يشاء بحكمته وعدله من استمر علىٰ الكفر.

[٢٨] يخبر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ عن كفار مكة فيقول له: ألم تعلم يانبي الله أن قومك اختاروا الكفر بدلًا عن الإيمان به، وشكره علىٰ نعمه التي أنعم بها عليهم؛ حيث أسكنهم البلد الأمين، وجلب لهم الأرزاق من كل قُطر، وبعث فيهم أفضل رسله وهو النبي محمد ﷺ الذي يعترفون بفضله وأمانته وصدقه؛ وكانوا سببًا في إدخال أتباعهم دار الهلاك والخسران؛ حين قادوهم إلىٰ بدر فقتلوا هناك شرّ قتلة.

[٢٩] ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ أن هؤلاء الذين كفروا بالله، وبدلوا نعمة الله عليهم، سوف يكون مصيرهم إلىٰ جهنم يدخلونها يقاسون حرَّها وسعيرها ويذوقون عذابها، وبئس القرار قرارهم فيها.

[٣٠] يخبر جل وعلا عن عمل السادة والسدنة وأصحاب الطرق الضالة الذي صدوا عن سبيل الله بأنهم جعلوا لله شركاء في الربوبية والألوهية فضلوا وأضلوا أتباعهم، فقل لهم يامحمد: استمتعوا في حياتكم الدنيا القصيرة الفانية، فإن مصيركم إلىٰ النار تعذبون فيها إن لم تؤمنوا بالله.

[٣١] يأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يحث عباده المؤمنين علىٰ إقامة الصلاة وأعمال الطاعة والإنفاق في سبيل الله سرًّا وعلانية من قبل أن يأتي الأجل فيفاجؤون بيوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا يستطيع

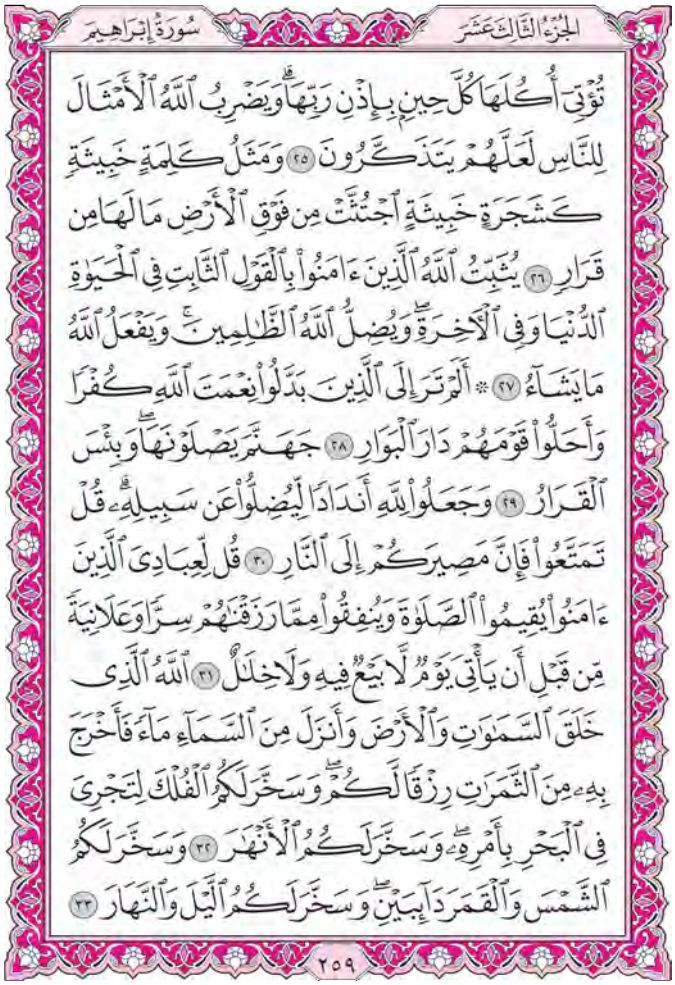

أحد أن يفدي نفسه ولا ينفعه أخلَّاؤه، وإنما ينفعه في ذلك اليوم العمل الصالح الذي قدمه في حياته الدنيا.

[٣٢] يعدد جل وعلا بعضًا من نعمه التي أنعمها علىٰ عباده، فمن ذلك: أنه سبحانه هو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما لعباده، وأنه سبحانه هو الذي أنزل المطر من السماء؛ فأصاب الأرض القاحلة فأخرج الله به زروعًا وثمارًا كثيرة مختلفة رزقًا يعيش عليه الناس والحيوانات، وذلّل سبحانه وسهّل لكم الصناعات والسفن والمراكب وأجراها لكم في البحر تستفيدون منها في تنقلاتكم وتجاراتكم، وهو سبحانه الذي سهل لكم جريان الأنهار بهذه الكيفية حتىٰ تستفيدوا منها في شربكم وسقْي زروعكم وثماركم.

[٣٣] وهو سبحانه الذي ذلَّل لكم الشمس والقمر ويسَّر لكم الانتفاع بجريانهما الذي لا يفتران عنه، وبضوئهما الذي لكم فيه منافع عظيمة، وهو سبحانه الذي سخَّر لكم الليل لتسكنوا فيه، والنهار لتسعوا فيه لتدبير شؤون معاشكم.

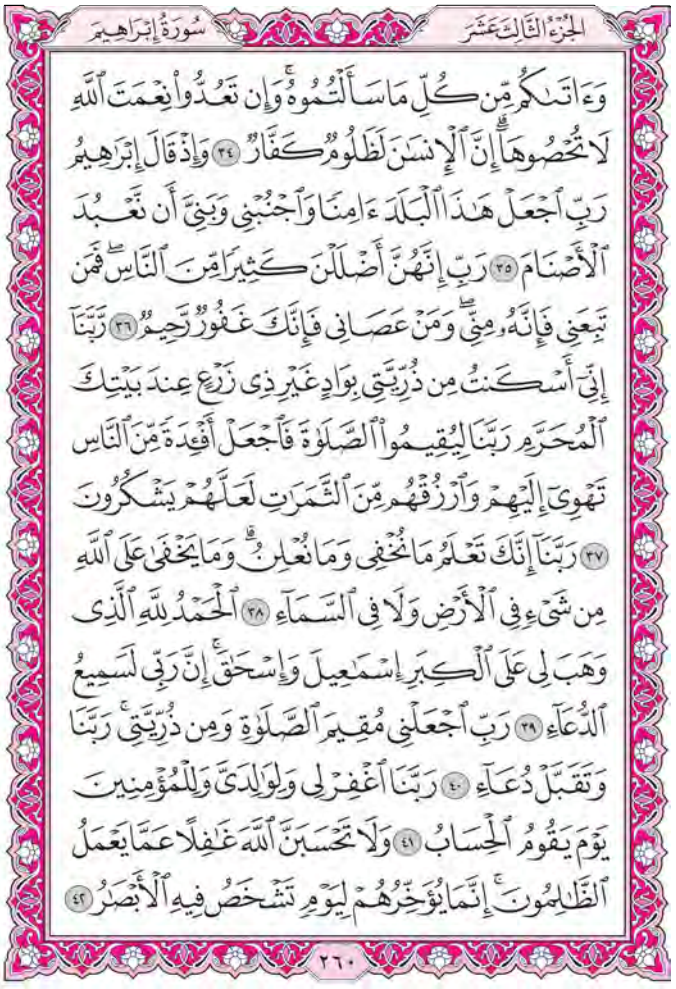

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ
لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ
رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ
ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن
تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ
إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ
ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ
تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ
﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى
وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ
ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا
وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾

[٣٤] وهو سبحانه الذي وهبكم وأعطاكم جميع ما طلبتموه وزيادة، واعلموا أنكم لو ذهبتم لعدِّ نعم الله عليكم وإحصائها ما استطعتم لذلك سبيلًا؛ فضلًا عن أن تؤدوا شكرها، فإن طبيعة الإنسان أنه متجاوز للحدِّ، كثير الظلم لنفسه ولغيره، وأنه كفَّار لنعم الله عليه، فلا يؤدي شكرها وقد لا يعترف بها للمُنعم سبحانه وتعالىٰ فنسأل الله أن يعيننا علىٰ شكر نعمه.

[٣٥] واذكر يانبي الله يوم أن دعا إبراهيم عليه السلام ربه فقال: يارب إني أسألك أن تجعل هذا البلد -وهو مكة- آمنًا مستقرًا مطمئنًا يأمن كل من كان فيه ومن دخله، وكان ذلك بعد أن أسكن ابنه إسماعيل وزوجه هاجر في وادي مكة، ثم طلب من ربه أن يعصمه وأبناءه من عبادة الأصنام، وجميع ما يعبد من دون الله.

وقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾، قيل: أراد أبناءه الموجودين من صلبه، وقيل: بل أراد جميع ما تناسل من ذريته، وقوله: ﴿ٱلْبَلَدَ﴾، عُرِّف بالألف واللام لأنها بعد أن خرج ماء زمزم تجمعت فيها قبائل من جرهم فأصبحت مدينة بخلاف ما ذكره في سورة البقرة؛ حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾[البقرة:١٢٦].

[٣٦] ثم قال إبراهيم: يارب؛ إن هذه الأصنام التي تُعبد من دونك كانت سببًا مباشرًا في ضلال كثير من الناس وبعدهم عن طريق التوحيد، فمن تبعني يارب في التوحيد والإيمان فهذا مني وأنا منه، أما من عصاني فيما دون الشرك فإنك كثير المغفرة والرحمة فتجاوز عنه واغفر له، ومن عصاني في التوحيد؛ فاللهم برحمتك ومغفرتك دلّه علىٰ الإيمان والتوحيد.

[٣٧-٣٨] يخبر الله جل وعلا عن توكل إبراهيم عليه السلام ودعائه وتضرعه إذْ ناجىٰ ربه قائلًا: يارب إنك تعلم أني أسكنت بعض ذريتي -هاجر وإسماعيل وبنيه- وأنزلتهم في أرض جرداء، لا زرع فيها ولا ماء، وذلك بجوار بيتك المحرم الكعبة، فاللهم إني أسألك أن تجعلهم من مقيمي الصلاة المداومين عليها، اللهم واجعل قلوب الناس تمتلئ بحبهم وتميل إليهم، اللهم وأسبغ عليهم نعمك، وارزقهم من طيِّب الثمرات وأنواعها؛ لعلهم يشكرون لك هذه النعم والعطايا. اللهم ربنا إنك تعلم سرنا وجهرنا، وتعلم ما أخفينا وما أعلنَّا، لا يخفىٰ عليك سبحانك شيء في الأرض ولا في السماء.

[٣٩] ثم أثنىٰ إبراهيم علىٰ ربه قائلًا: الحمد لله الذي أعطاني علىٰ كبر سني وشيخوختي ابنين بارين هما إسماعيل وإسحاق، بعد أن كنت آيس من الولد، إن ربي سبحانه سمع دعائي وأجاب طلبي.

قيل: رزقه الله إسماعيل وعمره تسعة وتسعون سنة، ورزقه إسحاق وعمره مائة واثني عشرة سنة.

[٤٠] ثم طلب إبراهيم عليه السلام من ربه الإعانة علىٰ مداومة أداء الصلاة علىٰ أتم وجه بإخلاص وخشوع وخضوع، وأن يجعلَ من ذريته من يحافظ عليها في أوقاتها، ثم قال: وأسألك يا رب أن تستجيب دعائي وتحقق لي مطلبي.

[٤١] ثم دعا ربه قائلًا: اللهم يا رب أسألك أن تغفر لي ولوالدي -وذلك قبل أن يأمره الله بالبراءة من الشرك والمشركين مهما كانت قرابتهم-، وأن تغفر للمؤمنين الذين صدقوا ما جاءت به الرسل فآمنوا وعملوا الصالحات، اللهم اغفر لنا جميعًا يوم الجزاء والحساب، يومَ الدين.

[٤٢] يسلي جل وعلا نبيه ﷺ والمؤمنين المضطهدين في مكة، فقال: ولا تحسبن يامحمد أن الله غافل عمّا يعمل هؤلاء الظالمون من تكذيبك وتكذيب الأنبياء قبلك، وإيذاء المؤمنين، إنما يؤخرهم ليوم القيامة ذلك اليوم الذي تشخص فيه الأبصار من شدّة الأهوال وكثرتها. والمقصود: أن لا يظن أحد أن إمهال المسيئين أو المشركين عن غفلة أو نسيان، وإنما ليزدادوا إثمًا؛ فيأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، أو يؤخر عقوبتهم لليوم الذي تذهل فيه كل والدة عمّا ولدت، وتضع كل ذات حمل حملها من فظاعته وشدته.

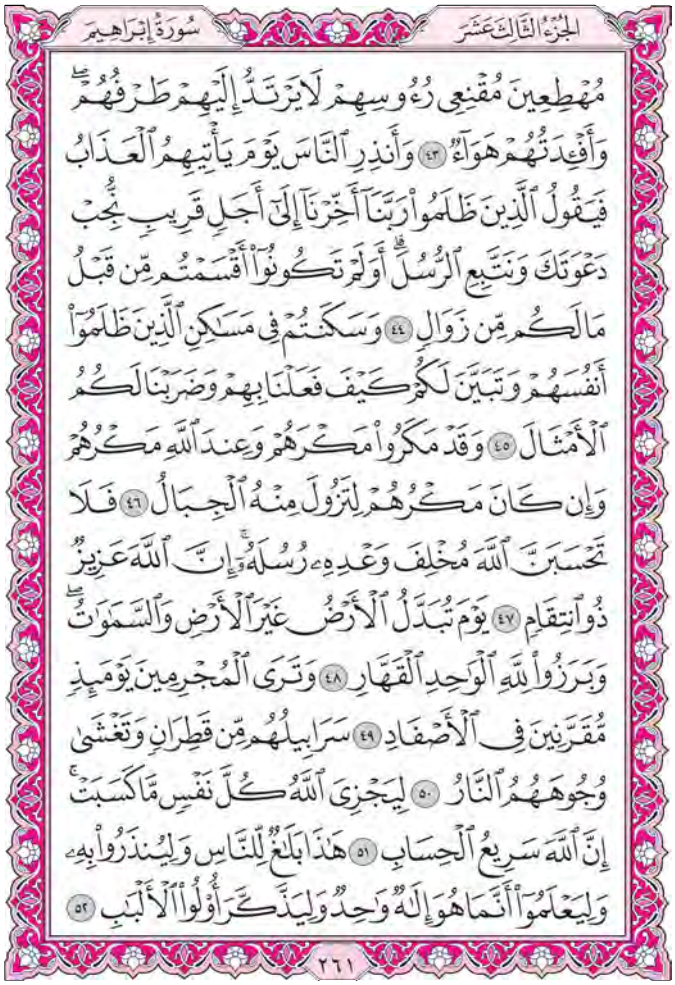

[٤٣] وهؤلاء الظالمون يخرجون يوم القيامة من قبورهم مسرعين لإجابة الداعي في ذلة وانكسار؛ رافعين رؤوسهم، وأبصارهم شاخصة، وأفئدتهم خالية فارغة لا عقل ولا شيء فيها من الفزع وشدّة هول الموقف.

[٤٤] وأنذر يانبيَّ الله الناس الذين أرسلت إليهم عذاب يوم القيامة، قبل أن يقول الذين ظلموا أنفسهم بالكفر: يارينا أعطنا فرصة إلىٰ وقت قريب لنتوب، ونؤمن بك ونصدق رسلك، ونصحح أعمالنا، فيقال لهم توبيخًا: أعطيتكم فلم تستجيبوا؛ بل أقسمتم ما لكم من انتقال عمّا كنتم عليه في حياتكم الدنيا.

وهذا فيه تعزية للرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، وتحذير وزجر للمجرمين.

[٤٥] يهدد سبحانه الظالمين فيقول لهم: وسكنتم أيها الظالمون في منازل الكافرين قبلكم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والجحود كقوم هود وصالح، وقد رأيتم ما حل بهم من الهلاك والعذاب والدمار، وضربنا لكم الأمثال الواضحة البينة ومع ذلك لم تعتبروا ولم تتعظوا.

[٤٦] ذكر جل وعلا بغي الكفار وتآمرهم علىٰ قتل الرسول ﷺ؛ حيث دبروا له جميع أنواع الكيد من قتل وحبس وإخراج، ولكن الله كان لهم بالمرصاد، فأبطل كيدهم وأحبط مكرهم، ولو كان مكرهم عظيمًا شديدًا لا تتحمله الجبال؛ لأنه لم يتجاوز مكر أمثالهم ممن دمرناهم من الأمم السابقة؛ بل عاد كيدهم علىٰ أنفسهم.

[٤٧] وعد جل وعلا رسله بالنصر والتمكين، فقال: لا تحسبن يانبي الله أن الله يخلف رسله ما وعدهم به من نصرتهم في الحياة الدنيا، وإهلاك أعدائهم المكذبين الظالمين، واعلم أن الله عزيز لا يمتنع عليه شيء، ينتقم من أعدائه أشد الانتقام.

[٤٨] واعلموا أن هذا الانتقام للظالمين يكون يوم القيامة، يوم أن تسوىٰ الأرض، ويتغير شكلها، فلا يكون فيها ارتفاع ولا انخفاض؛ حتىٰ تصير كأنها قاعٌ صفصفٌ، لا ترىٰ فيها عوجًا ولا أمتًا، وتُخرِج أثقالها؛ وأيضًا تخرج الخلائق من قبورها؛ ويظهر معهم ما كانوا يكتمون من أعمالهم.

والمقصود: أنها تُعد إعدادًا صالحًا للبقاء السرمدي بعد البعث، ثم بين سبحانه أن الخلائق يبرزون للقاء الله الواحد القهار، المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله. وقد قيل في قوله (يوم تبدل)، أي: تغير ذاتها، وقيل: ينقصها ويعيد شكلها.

[٤٩-٥٠] وترىٰ يانبي الله وتبصر الذين أجرموا في حق الله جل وعلا بالشرك في ذلك الموقف الرهيب، وقد جُمع بعضهم إلىٰ بعض، وجُمعت أيديهم وأرجلهم إلىٰ أعناقهم ورُبِطت بالسلاسل، وهم في غاية الذلّ والهوان. وأن ثيابهم - وهم في هذه الحالة - من قطران سريع الاشتعال، شديد الحرارة، مُنتِن الريح، وتغطي وجوههم نار جهنم فتغشاها وتصلاها فتحرقها، نسأل الله السلامة والعافية.

[٥١] واعلموا أن هذا الجزاء من الله لأعدائه المجرمين بما كسبوا من الذنوب والمعاصي والآثام في الدنيا، لأن الله جل وعلا يجازي كل نفس بما عملت في دنياها، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرّ، وهو سبحانه يحاسب الجميع في وقت سريع فلا يشغله حساب عن حساب ولا أمر عن أمر.

[٥٢] ذكر جل وعلا أن هذا القرآن أنزله علىٰ نبيه ﷺ لإبلاغ الناس وإعلامهم وإنذارهم؛ وليعلموا علم اليقين أن الله هو الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو؛ فيعبدوه وحده لا شريك له، وفيه لأصحاب العقول السليمة والفطر القويمة ما يتعظون به ويعتبرون.